سلسلة مداخل علوم اللغة العربية:

المدخل إلى علوم اللغة العربية

بقلم

د. أمين قادري

-جامعة الجزائر-02-

ألقيت بجمعية جسور الخير-حي الرميلي-أولاد سلامة

ليلة الأحد:18 جمادى الآخرة 1445

أسئلة المدخل:

1–ما اللسان الذي تتعلق به العلوم اللغوية في الإسلام؟

2–ما وجه كون علوم اللغة العربية علوما إسلامية وما منزلتها في علوم الإسلام؟

3–ما العلم باللغة؟ وكيف سبيل تحصيله؟

4–ما علوم اللغة العربية؟

5–ما مراتب علوم اللغة العربية في حاجة بعضها إلى بعض؟ وما مراتب الحاجة إليها في علوم الشريعة؟

6–هل علوم اللغة ثابتة أم متزايدة؟ وهل الزيادة فيها زيادة نماء أم زيادة دَخَل؟

7–ما حد تحصيل علوم اللغة الذي ينتهي إليه طالب علم العربية وطالب علم الشريعة؟

8–ما أصول كتب علوم اللغة؟ وما قواعد ترتيبها؟

9–هل لأمصار الإسلام علاقة بأنواع علوم اللغة؟ وما سبب ذلك؟

10–وقفة أخيرة: ما العلوم المستجدة في اللغة العربية؟ وما الموقف منها شرعا وعقلا؟

المدخل إلى علوم اللغة العربية

د. أمين قادري

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فالغرض من هذا المدخل هو الوقوف على أهم المعارف التي ينبغي على طالب العلم(وعلم الشريعة خصوصا) أن يعلمها عن علوم اللغة العربية، ولما كانت العربية من السعة وكثرة الأصول وأفراد المسائل والفروع بالمحل المعروف، كانت الإحاطة بالمعارف الضرورية المتعلقة بها في مدخل مختصر من أصعب المطالب، ولا يشفع لهذه الصعوبة إلا ضرورة ذلك؛ ليرتسم في ذهن الطالب حدود العلم ومجالات القول فيه، فإن معرفة حدود العلم عون على الشروع في طلبه، وعقد نظام مراتبه باعتبار الضروري منه والتكميلي، والعيني والكفائي، والأصلي والفرعي.

ومعرفة الشيء على جهة الإجمال معرفة مطلوبة ليحصل بذلك التصور المحيط بأطرافه، كما أن معرفته على جهة التفصيل مطلوبة ليحصل بذلك العمل به. والمعرفة المجملة المفيدة للتصور المحيط تنفع الطالب في أمور منها: معرفة ما يلزمه من العلوم الواجبة التحصيل، ومعرفة ما بقي عليه من واجب التحصيل، وتمييز أصيل العلم من دخيله.

والمدخل كما يدلّ عليه لفظه ييسر على الطالب الولوج في العلم ويرغّبه فيه ويشجّعه عليه، فهو من الجهة الأولى خريطة للعلم يهتدي بها السالك فيه، ومن الجهة الثانية بيان مزيّةٍ وإيضاحُ فضيلةٍ، لتحصل الرغبة والإقبال والحرص والجد في التحصيل. فالمداخل أوائل العلوم لا أواخرها ولكنها أوائل لا يُحسن وضعَها إلا من شامّ الأواخر، ومن أجل ذلك كان وضع هذا المدخل مما استفدناه من أساتذتنا وشيوخنا، الذين بلغوا في هذه العلوم المدى، وأربوا فيها على الغاية، فوقفوا منها على أغراض الواضعين ومبادئ المؤسسين ومسالك المجتهدين.

فالمدخل ينتفع به كل أحد بالقدر الذي بلغه من هذا العلم، فينتفع به المبتدئ بمعرفة حدّه وموضوعه وغايته وثمرته، وينتفع به السالك بتصحيح وجه سلوكه فيه وإدراك فوته، وينتفع به المنتهي بإدراك الحكمة من العلم وتأسيس طرائق تعليمه أو الزيادة فيه.

ولما كانت معارف المدخل بالكثرة التي ذكرنا، ولزم من موضوعه وهو (علوم اللغة) تشعّبه، على ضيق ما فسح له من مجال القول؛ رأينا أن عرضه يقتضي تدبيرا يختلف عن تدبير السعة والراحة، فرتبناه على طريقة السؤال والجواب ليكون أقرب للفهوم وأنفع للطلاب، فعقدناه في عشرة أسئلة نسأل الله تعالى التوفيق في الجواب عليها بما يتيسر، فنقول وبالله التوفيق:

1–ما اللسان الذي تتعلق به العلوم اللغوية في الإسلام؟

إن اللسان الذي هو موضوع علوم اللغة العربية هو اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم، وبه كان يتخاطب الناس على زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقبله بمدة وبعده بمدة، وضابط هذه المدة هو عدم تغيّر هذا اللسان على ألسن المتكلمين به، والحاجة إلى بيان هذا قائمةٌ، لاختلاف ما يسمى عربية. فقد كان على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم عربية باليمن هي غير عربية القرآن وعربية النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان أهلها يسمونها عربية، كما شهد بذلك أبو عمرو ابن العلاء رحمه الله كما ذكره عنه ابن سلام في الطبقات(11/1)، قال: "مَا لِسَان حمير وأقاصي الْيمن الْيَوْم بلساننا، وَلَا عربيتهم بعربيتنا".

ولم يكن لعلماء العربية عناية كذلك بما كانت عليه العربية قبل لسان القرآن، فلم ينقّبوا عن أصول ألفاظهم ومعانيهم قبل ما تواضع العرب عليه زمن القرآن الكريم، وكذلك حين تغيّر لسان العرب وكثر اللحن فيه، بقي ما يتخاطب الناس به يسمى عربية إلى زماننا هذا، إلا أن علوم اللغة العربية لا تنظر فيه إلا بمقدر ما تنبه به على الأمر الأول من وضع لغتها، ذلك أن مدار علوم اللغة من أول وضعها كان على صيانة لفظ الوحي ومعناه، وإعانة الناس على أدائه أداء سليما، وفهمه فهما صحيحا.

ولذلك لم يحفظ العلماء من الشعر القديم إلا ما جاء على لغة القرآن، ولم يحفظوا شيئا من أشعار أقاصي اليمن ومن أشعار الأنباط بالشام لأن لسانهم غير لسان القرآن، ومن أراد الاتساع في هذا المعنى فليطالع مقدمة طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ومقدمة خزانة الأدب للبغدادي.

2–ما وجهُ عدِّ علوم اللغة العربية علوما إسلامية وما منزلتها في علوم الإسلام؟

إن علم العربية من آصل علوم الإسلام وأولها وأعلقها بالقرآن الكريم. وسبب ذلك أن وضعه أولَ ما وضع كان لصون القرآن الكريم من أن يلحن فيه القارئ، أو أن يهم في فهمه المتأمل، قال العكبري في التبيان(01/1): "فَإِن أولى مَا عُني باغي الْعلم بمراعاته، وأحق مَا صرف الْعِنَايَة إِلَى معاناته؛ مَا كَانَ من الْعُلُوم أصلا لغيره مِنْهَا، وحاكما عَلَيْهَا وَلها فِيمَا ينشأ من الِاخْتِلَاف عَنْهَا، وَذَلِكَ هُوَ الْقرَان الْمجِيد الذي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِل من بَين يَدَيْهِ وَلَا من خَلفه تَنْزِيل من حَكِيم حميد. وَهُوَ المعجز الباقي على الْأَبَد،

وَالْمُودع أسرار الْمعَاني الَّتِي لَا تنفد، وحبل الله المتين، وحجته على الْخلق أَجْمَعِينَ. **فَأول مبدوء بِهِ من ذَلِك تلقف أَلْفَاظه عَن حفاظه، ثمَّ تلقي مَعَانِيه مِمَّن يعانيه، وأقوم طَرِيق يسْلك فِي الْوُقُوف على مَعْنَاهُ، ويتوصل بِهِ إِلَى تَبْيِين أغراضه ومغزاه؛ معرفَة إعرابه، واشتقاق مقاصده من أنحاء خطابه**".

وقد أقرّ أئمة الإسلام من أهل الحديث والفقه صنيع أهل العربية في نقط القرآن وإعرابه وشكله، والكلام في ألفاظه وتراكيبه بمقتضى اصطلاحهم، لأن ذلك جرى على طرائق تعظيم القرآن وتفيهمه، بما تفهمه العرب من كلامها، ولا يعاب من جهة الشرع، فعدوا ذلك من المصالح المرسلة التي تتحقق بها منفعة المكلف في قراءة القرآن وتدبّر معانيه، فبوّبوا لإعراب القرآن والمعرفة بالعربية أبوابا في كتب الحديث والسنة، كما صنع أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن(177/2) في باب: "بَابُ إِعْرَابِ الْقُرْآنِ وَ الْكَلَامِ وَمَا يُسْتَحَبُّ لِلْقَارِئِ مِنْ ذَلِكَ وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ"، وابن أبي شيبة في المصنف(389/16) في "باب ما جاء في إعراب القرآن". وقال ابن حامد في تهذيب الأجوبة(308/1) من مسائل الإمام أحمد: "وقال حرب بن إسماعيل: قلت: الرجلُ يفسر إعراب القرآن فيقول: (الحمد لله). رفع لأنه ابتداء. و(قل): جزم لأنه أمر. (والتين والزيتون)، (والنازعات) قسم، ونحو هذا؟ قال: إذا كان شيئا قد تُكُلم فيه من قبل، رجوت".

وأما منزلة علوم العربية بالنسبة إلى علم الشريعة فهي منزلة لا تزال في علوّ على قدر نقص ملكة العربية في الناس، ومن أجل ذلك فإن من تأمل كتب الشريعة من اعتقاد وفقه وتفسير وحديث وأصول وغير ذلك وجدها تزيد في قدر ما فيها من العربية وعلومها على قدر تمادي الزمان، فإن الناس كلما تمادى بهم الزمان نقصت فيهم الملكة لبعدهم عن أصلها الأول، وقلة التخاطب بها في معاشهم، فتصير الحاجة إلى معرفة أحكامها مما تقرر في الكتب أعظم. وقد كان الصدر الأول من الأمة مستغنين عن تلقّن قواعدها المقررة لأن ملكة التخاطب والتفاهم بها كانت مستقرة في نفوسهم، فلما انفصلت تلك الملكة عن المتحدثين احتيج إلى تقرير قواعد اللسان وضبط روايته في الكتب. قال ابن أبي شيبة(391/16): "حدثنا حسين بن علي[1] عن أبي موسى[2] قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، والله ما أراك تلحن: فقال: يا ابن أخي إني سبقت اللحن". بمعنى أنه أخذ هذه العربية عن أهلها قبل أن يدخل الفساد على أهل اللسان.

ثم اشتدت الحاجة إلى علوم اللغة العربية بأنواعها لكل مشتغل بعلم الشريعة، فنبه إلى ضرورة العلم بالعربية الشافعي في الرسالة(ص48-50)، فقال رحمه الله: "**فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما**

[1]-هو الجعفي.

[2]-هو إسرائيل بن موسى أبو موسى البصري نزيل الهند.

بلغه جهده، حتى يَشْهَد به أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمد عبده ورسوله، ويتلوَ به كتابَ الله، وينطق بالذكر فيما افتُرِض عليه من التكبير وأُمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك. **وما ازداد من العلم باللسان الذي جعله الله لسانَ مَنْ خَتَم به نُبوته وأنْزَلَ به آخر كتبه؛ كان خيراً له،** كما عليه يَتَعَلَّمُ الصلاة والذكر فيها، ويأتي البيتَ وما أُمِر بإتيانه، ويتوجه لِما وُجِّه له، ويكون تبَعاً فيما افتُرِض عليه ونُدب إليه لا متبوعا. **وإنما بدأت بما وصفتُ من أن القُرَآن نزل بلسان العرب دون غيره لأنه لا يَعلم مِن إيضاح جُمَل عِلْم الكتاب أحد جهِل سَعَة لسان العرب وكثرةَ وجوهه وجِماعَ معانيه وتفرقَها. ومن علِمه انتفَتْ عنه الشُّبَه التي دخلت على من جهل لسانها. فكان تَنْبيه العامة على أن القُرَآن نزل بلسان العرب خاصة نصيحةً للمسلمين،** والنصيحة لهم فرضٌ لا ينبغي تركه وإدْراكُ نافلة خيْرٍ لا يَدَعُها إلاَّ مَن سفِهَ نفسَه وترَك موضع حظِّه، وكان يَجْمع مع النصيحة لهم قيامًا بإيضاح حقٍّ وكان القيام بالحق ونصيحةُ المسلمين من طاعة الله وطاعةُ الله جامعة للخَير".

3-ما العلم باللغة؟ وكيف سبيل تحصيله؟

إن للعلم بمعلومٍ ما وجوهًا من التحصيل، يسمى بعضها على الإفراد علما، إلا أن كمال مفهوم ذلك العلم لا يحصل إلا بمعرفته من وجوه تحصيله، فحديث النبي صلى الله عليه وسلم مثلا يُعلم من جهة حفظه وضبطه ويعلم من جهة فقهه واستنباط معانيه وأحكامه، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك في حديثه المشهور: "نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي، فَوَعَاهَا، ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ "[3].

والعلم باللغة من هذه البابة، فقد يحصّل من جهة حفظ أفراد ألفاظ اللغة ومعانيها، والوقوف على شواهد تراكيبها ووجوهها، ومعرفة أعيان مجازاتها، وقد يحصّل من جهة معرفة قواعدها، وقوانين مفرداتها وتراكيبها، وأقيستها في ذلك، ووجوه بلاغتها في القول، ومسالك مجازاتها واستعاراتها، وهذا أنفع الوجهين لطالب العلم، لأنه مشتمل –كما يقول أهل العلم- على أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية[4].

وقد حرص العلماء على الجهة الثانية لعلمهم بأن الحفظ لا يحيط بالجهة الأولى، ولو أحاط بها لما أسعف الاستحضارُ الحافظ في كل مسألة أو حرف من اللغة، فكان طلب ذلك من جهة القواعد الكلية أضبط

---

[3]-أخرجه أحمد عن جبير بن مطعم، وهو صحيح لغيره.

[4]-العبارة لابن هشام في المغني. وقال ناظر الجيش في تمهيد القواعد(922/2): "وإذا تقرر ضابط المسألة بأمر كلي فلا حاجة إلى تعدد الأماكن؛ لأن الصور الجزئية لا تكاد تنحصر".

وأسرع، ثم إن الحافظ إذا فاته الحرف من اللغة من جهة الحفظ لم يمكنه استدراكه، والفقيه في اللغة إن فاته من جهة الحفظ ربما أمكنه طلبه من جهة قوانين العربية.

وقد نبه العلامة ابن فارس رحمه الله على هذين الوجهين في كتابه الصاحبي(11-12) فقال: "**إن لعلم العرب أصلاً وفرعاً**: أمَّا الفرعُ فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا: "رجل" و"فرس" و"طويل" و"قصير". وهذا هو الَّذِي يُبدأ بِهِ عند التعلُّم. **وأمَّا الأصلُ فالقولُ عَلَى موضوع اللغة وأوَّليتها ومنشأها، ثُمَّ عَلَى رسوم العرب فِي مخاطبتها، وَمَا لَهَا من الافْتِنان تحقيقاً ومجازاً**. والنّاسُ فِي ذَلِكَ رجلانِ: رجلٌ شُغل بالفرع فلا يَعْرِف غيرَه، **وآخَرُ جَمع الأمريْنِ معاً، وهذه هي الرُّتبة العليا، لأن بِهَا يُعلم خطابُ القرآن والسُّنة، وعليها يُعوّل أهلُ النَّظر والفُتيا**، وذلك أن طالبَ العلم العُلوي يكتفي من أسماء "الطويل" باسم الطويل، ولا يَضِيرُه أن لا يعرف "الأشَقَّ" و"الأَمقَّ"، وإن كَانَ فِي علم ذَلِكَ زيادةُ فَضل. وإنَّما لَمْ يَضِره خفاءُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، لأنَّه لا يَكاد يجدُ منه فِي كتاب الله جل ثناؤه شيئًا فيُحْوَجَ إِلَى علمه؛ ويقل مثله أيضاً فِي ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ كَانَتْ ألفاظُه -صلى الله عَلَيْهِ وسلم- هي السّهلة العَذْبَة. ولو أنه لَمْ يَعْلم توسُّع العرب فِي مخاطباتها لَعَيَّ بكثير من علم مُحْكَم الكتاب والسنَّة، ألا تسمع قول الله جل ثناؤه: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) إِلَى آخر الآية؟ فسِرُّ هَذِهِ الآية في نطْقها لا يكون بمعرفةٍ غريب اللغة والوَحْشيّ من الكلام، وإنَّما معرفته بغير ذَلِكَ مما لعلَّ كتابنا هَذَا يأتي عَلَى أكثره بعون الله تعالى. والفرق بَيْنَ معرفة الفروع ومعرفة الأصول أن مُتَوسِّماً بالأدب لو سُئل عن "الجَزْم والتسويد" فِي علاج النوق، فتوقف أَوْ عيَّ بِهِ أَوْ لَمْ يعرفه، لَمْ ينقصه ذَلِكَ عند أهل المعرفة نقصاً شائناً، لأن كلام العرب أكثر من أن يُحصى. ولو قيل لَهُ: هل تتكلم العربُ فِي النّفي بما لا تتكلم بِهِ فِي الإثبات، ثُمَّ لَمْ يعلمه لنَقْصه ذَلِكَ فِي شريعة الأدب عند أهل الأدب، لا أنَّ ذَلِكَ يُرْدي[5] دينه أَوْ يَجُرُّه لمأثم".

4-ما علوم اللغة العربية؟

كان علم العربية في أول وضعه علما واحدا، لقلة ما فيه من المعارف، ثم لم يزل أهل العربية يزيدون فيه على قدر ما يحصل عندهم من سماع كلام العرب واستقرائه واستنباط أصوله، فعلى قدر ذلك تمايزت عندهم أوضاعه، فعرفوا أن أحكام إفراده غير أحكام تركيبه، وأن تصاريف لفظه غير تصاريف معناه، وأن قوانين وضعه غير قوانين استعماله، فبذلك تمايزت في عقولهم علومه، ثم تبع ذلك مَيزها في الوضع والتأليف.

[5]-وقع في عدة مطبوعات (يُرِدُ) ولا معنى لها مع مخالفتها قياس المضعّف، والتصويب من مخطوطة مكتبة بايزيد بتركيا. وهي فيها بياء مجوّدة.

وقد نبه المؤلفون في العلوم والصنائع ومراتب الفنون منذ القديم على مراتب علوم العربية، ومن أوائلهم محمد بن إسحاق المشهور بابن النديم في كتابه الشهير بالفهرست، وذلك في المقالتين الثانية والثالثة، حيث ميّز بين صناعة اللغة وصناعة الأدب، وميز في صناعة اللغة بين النحويين أهل المقاييس واللغويين أهل الرواية.

وقد جاء تقسيم علوم اللغة إلى فنونها عند جماعة من العلماء كالزمخشري وابن الأنباري. قال الزمخشري في كتابه القسطاس(15-16): "اعلم أنَّ أصناف العلوم الأدبية ترتقي إلى اثني عشر صنفاً: الأول: علم اللغة، والثاني: علم الأبنية، والثالث: علم الاشتقاق، والرابع: **علم الإعراب**[6]، والخامس: علم المعاني، والسادس: علم البيان، والسابع: علم العروض، والثامن: علم القوافي، والتاسع: إنشاء النثر، والعاشر: قرض الشعر، والحادي عشر: علم الكتابة، والثاني عشر: المحاضرات". قال ابن الأنباري في كتابه نزهة الألباء(ص76): "علوم الأدب ثمانية: النحو، واللغة، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب وأنسابهم؛ وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما؛ وهما علم الجدل في النحو، وعلم أصول النحو".

والمتأمل لصنوف علوم اللغة يجد أن موجب تمايزها ثلاثة أمور: تمييز المفرد عن المركب، وتمييز اللفظ عن المعنى، وتمييز الوضع عن الاستعمال. ثم مع تركيب هذه الأصناف يتحصل من قسمة التركيب علوم اللغة الناظرة فيها، ثم يلتحق بها ضربان من العلوم، العلم المؤصل لها كعلم أصول النحو وعلم الشواهد، والعلم الناشئ عنها كعلم الإعراب.

5-ما مراتب علوم اللغة العربية في حاجة بعضها إلى بعض؟ وما مراتب الحاجة إليها في علوم الشريعة؟

تكلم علماء العربية في تشقيق علوم اللغة على ما ذكرنا، كما تكلموا في مراتب بعضها بالنسبة إلى بعض، فبينوا ما يطلب ابتداء وما يطلب تبعا، وما لا يحصل في التصور إلا بعلم سابق، وما يمهد به لغيره وإن كان متأخرا عنه في الوجود لمعنى، ولهم في ذلك كلام كثيرا وأنظار مختلفة، ونحن نذكر من ذلك مثالين:

المثال الأول: في ما بين النحو والتصريف من المناسبة والترتيب، قال أبو الحسن ابن عصفور في كتابه "الممتع في التصريف"(27/1): " التصريف أشرف شطري العربية وأغمضهما: فالذي يبين شرفه احتياج جميع المشتغلين باللغة العربية، من نحوي ولغوي، إليه أيما حاجة؛ لأنه ميزان العربية؛ ألا ترى أنه قد يؤخذ

[6]-أثبت المحقق من حاشية الأصل المخطوط : علم الإعراب هو المعرفة بأحوال الكلم وكيفية تركيبها.

جزء كبير من اللغة بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف"، إلى أن يقول(30/1): "وقد كان ينبغي أن يقدَّم علم التصريف على غيره من علوم العربية، إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب. ومعرفة الشيء في نفسه، قبل أن يتركب، ينبغي أن تكون مقدمة على معرفة أحواله التي تكون له بعد التركيب. إلا أنه أُخِّر للطفه ودقته، فجعل ما قدم عليه من ذكر العوامل توطئة له، حتى لا يصل إليه الطالب، إلا وهو قد تدرب وارتاض للقياس".

المثال الثاني: في تراتب علوم اللغة لتحصيل علم الأدب، وقد نبه على ذلك السكاكي في مفتاحه(ص06) فقال: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهي عدة أنواع متآخذة فأودعته علم الصرف بتمامه وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع على أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع. وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان، ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال لم أر بداً من التسمح بهما، وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر ورأيت صاحب النظم يفتقر على علمي العروض والقوافي ثنيت عنان القلم على إيرادهما وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعد ما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب".

وأما ترتيبها بحسب الحاجة إليها في علوم الشريعة، فإنها تختلف في ذلك بحسب العلم المطلوب، ولكنها تتكافأ في غاية المطلب، فبعض علوم الشريعة حاجته إلى علوم ألفاظ اللغة أعظم من حاجته إلى علوم معانيها، كعلم التجويد والقراءات، وبعضها يُطلب فيه معرفة المعاني أكثر من طلب معرفة الألفاظ كعلم الفقه وأصوله، وبعضها يتكافأ فيه الطلب كعلم التفسير وفقه السنة. وأكثر ما ذكره أهل الأصول من الفنون المحتاج إليها ثلاثة: اللغة: أي مدلول مفردات العربية، والنحو، والتصريف، واختلفوا في البلاغة، وحصرها العلامة العطار في حاشيته على جمع الجوامع(422/2) في النحو والتصريف والبيان. ولكن واقع حال العلوم يشهد بأنه كلما كان طالب الشريعة أكثر تبحرا في علوم العربية كان نزعه لمعانيها ومأخذه في أحكامها أقرب وأضبط، وربما وجبت معرفة بعض العلوم وجوب لازم اللازم، كالمعرفة بالعروض لصاحب التفسير، فإنها لا تدخل في صناعته دخولا أوليا، ولكنه محتاج إليها لتصحيح ما يحتج به من شعر أو رجز، وضبط وزنه لئلا يحتج بعروض مكسور فيبطل بذلك دليله.

6-هل علوم اللغة ثابتة أم متزايدة؟ وهل الزيادة فيها زيادة نماء أم زيادة دَخَل؟

إذا تأمل المتأمل ما سبق ذكره تبين له أن علوم اللغة في زيادة، وأن هذه الزيادة أوجبتها أمور، منها المنقطع، ومنها المستمر.

الأمر الأول: زيادة أوجبتها زيادة استقراء العربية وسماع كلام الفصحاء، وهذا أمر انقطع بانقطاع الفصاحة واندثار أهلها.

الأمر الثاني: زيادة أوجبها تشقيق المسموع وتصنيفه وترتيبه، فهذا الذي أوجب فصل التصريف عن النحو، وفصل الاشتقاق عن الأبنية وفصل البديع عن البيان والمعاني، وفصل القوافي عن العروض.

الأمر الثالث: زيادة أوجبها النظر في اللغة ومبادئها وفلسفتها وتطبيقاتها، وما لها من صلة وعُلقة بالعلوم والصناعات ومظاهر العمران المختلفة، فهذا الذي زاد فيها، وربما دخل عليها من هذه الجهة دَخَلُ علوم حرفتها عن مسلكها الأول وعن مقاصد واضعيها المبتدئين لها، وأعظم ذلك أثرا وأشدّه غائلة منطق أرسطو، وأكثر ما تأثر به من علوم اللغة العربية: النحو والبلاغة.

7–ما حد تحصيل علوم اللغة الذي ينتهي إليه طالب علم العربية وطالب علم الشريعة؟

قد سبق قدر من الجواب على هذه المسألة في المسألتين: الثانية والخامسة، ونزيد هنا أمورا فنقول: أما طالب العربية، فالمطالبة عليه أشد وأعظم، لأن العربية لما كان سبيلها سبيل الملكات، وتركيبها تركيب الأنظمة، لم يكن بد من ضبط أصول علومها، والاستكثار منها ما أمكن. غير أن تاريخ العلم شاهد بأن الاختصاص بفن أو أكثر سبيل للتبريز فيه، كما برّز سيبويه في النحو وابن جني في التصريف والأزهري في اللغة والجرجاني في البلاغة وهكذا.

وأما طالب علم الشريعة فاختلف فيه أهل الأصول على مذهبين: مذهب يقف بغاية الطلب عند حد ما اشتملت عليه ألفاظ نصوص الوحي، إذ الوحي محل نظره وعمله. ومذهب يدعوه إلى طلب العربية طلب الملكات لا طلب المعارف فيلزمه من التحصيل ما يلزم طالب علم العربية، لأن شأن متلقي الوحي لا ينحصر في فك ألفاظه وإعراب جمله، وإنما شأنه أن يتلقاه كما تلقاه الصدر الأول ويقارب بفهمه إياه فهومهم، ولا يبلغ ذلك ولا يدانيه إلا بأن يحصل له من الملكة ما يقرّبه من الفصاحة الأصلية، وهذا مذهب الإمام أبي إسحاق الشاطبي رحمه الله، فإنه قال في الموافقات(58/5–ط أيت سعيد) بعد ذكر شرط العلوم المطلوبة للمجتهد: "وَالْأَقْرَبُ فِي الْعُلُومِ إِلَى أَنْ يَكُونَ هَكَذَا عِلْمُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا أَعْنِي بِذَلِكَ النَّحْوَ وَحْدَهُ، وَلَا التَّصْرِيفَ وَحْدَهُ، وَلَا اللُّغَةَ، وَلَا عِلْمَ الْمَعَانِي، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللِّسَانِ، **بَلِ الْمُرَادُ جُمْلَةُ عِلْمِ اللِّسَانِ ألفاظا ومعاني كيف تُصُورت**، ما عدا علمَ الْغَرِيبِ، وَالتَّصْرِيفَ الْمُسَمَّى بِالْفِعْلِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالشِّعْرِ من حيث هو الشعر كَالْعَرُوضِ وَالْقَافِيَةِ، فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ مُفْتَقِرٍ إِلَيْهِ هنا، وإن كَانَ الْعِلْمُ بِهِ كَمَالًا فِي الْعِلْمِ بِالْعَرَبِيَّةِ. وَبَيَانُ تَعَيُّنِ هَذَا الْعِلْمِ مَا تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ الْمَقَاصِدِ مِنْ أَنَّ **الشَّرِيعَةَ عَرَبِيَّةٌ، وَإِذَا كَانَتْ عَرَبِيَّةً؛ فَلَا يَفْهَمُهَا حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا مَنْ فَهِمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةِ**

حَقَّ الْفَهْمِ؛ لِأَنَّهُمَا سِيَّانِ فِي النَّمَطِ مَا عَدَا وُجُوهَ الْإِعْجَازِ، فَإِذَا فَرَضْنَا مُبْتَدِئًا فِي فَهْمِ الْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ مُبْتَدِئٌ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ، أَوْ مُتَوَسِّطًا؛ فَهُوَ مُتَوَسِّطٌ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ وَالْمُتَوَسِّطُ لَمْ يَبْلُغْ دَرَجَةَ النِّهَايَةِ، فَإِنِ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْغَايَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ كَانَ كَذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ؛ فَكَانَ فَهْمُهُ فِيهَا حُجَّةً كَمَا كَانَ فَهْمُ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْفُصَحَاءِ الَّذِينَ فَهِمُوا الْقُرْآنَ حُجَّةً، فَمَنْ لَمْ يَبْلُغْ شَأْوَهُمْ؛ فَقَدْ نَقَصَهُ مِنْ فَهْمِ الشَّرِيعَةِ بِمِقْدَارِ التَّقْصِيرِ عَنْهُمْ، وَكُلُّ مَنْ قَصُرَ فَهْمُهُ لَمْ يُعَدَّ حُجَّةً، وَلَا كَانَ قَوْلُهُ فِيهَا مَقْبُولًا". إلى آخر ما قال في فصله هذا رحمه الله، وهو فصل غاية في النفاسة، وفيه تنبيه على أهل المذهب الأول.

ولما كان أهل الشريعة هم المخبرين عن حكم الله عز وجل والداعين إليه بإذنه، لزمهم من تعلم العربية ما يحصل به البيان الجليّ والبلاغة المؤثرة ليكون أعون لهم على تبليغ دين الله تعالى وتفهيمه لعباده وترغيبهم فيه، فهذا وجه آخر يدعوهم إلى طلبه والجد في تحصيله.

8–ما أصول كتب علوم اللغة؟ وما قواعد ترتيبها؟

الكتب دواوين العلم الجامعة ووثائقه الحافظة، ولذلك حرص العلماء على التأليف؛ لعلمهم بما يجري على الذهن من النسيان والسهو والغلط والوهم، وقد كثرت هذه الكتب كثرة ربما فرّقت على طالب العلم عزيمته وشتتت عليه نظره، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في وصيته الصغرى(ص59– ط شاهين): "وَقَدْ أَوْعَبَت الْأُمَّةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ الْعِلْمِ إيعَابًا، فَمَنْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ هَدَاهُ بِمَا يَبْلُغُهُ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ أَعْمَاهُ لَمْ تَزِدْهُ كَثْرَةُ الْكُتُبِ إلَّا حَيْرَةً وَضَلَالًا".

ولما كانت الكتب بالكثرة على ما ذكر، عسر ترتيبها بحسب الفضيلة لتعذر الوقوف على مزاياها كتابا كتابا، ثم لاختلاف أوضاعها وأغراض أصحابها فيها، فمنها الموضوع للعلم ومنها الموضوع للتعليم، ومنها ما وضع للتأصيل ومنها ما وضع للتفريع ومنها ما وضع للخلاف ومنها ما وضع للغرائب، ولكلّ واحد منها فضيلة. غير أن لكل علم أصولا تتابع علماؤه على تقديمها وتفضيلها والاحتكام إليها عند الخلاف والاقتداء بها في الوضع والتأليف. ونحن نذكر من ذلك في العربية جملة:

فمن ذلك في النحو: كتاب سيبويه وشروحه للسيرافي والرماني والفارسي، ومقتضب المبرّد، وأصول ابن السراج، وإيضاح الفارسي وشرحه للجرجاني، ومفصّل الزمخشري وشرحه لابن يعيش، والكافية لابن الحاجب وشرحها للرضي. ثم اشتغل الناس بكتب ابن مالك كالتسهيل والخلاصة، وكتب ابن هشام كالقطر والشذور والتوضيح لسهولة مأخذها وحسن ترتيبها على ما فيها من مخالفة سنن المتقدمين، فنفع الله بها من شاء من طلاب العلم، ومن أراد الله به خيرا وفقه لتسنمها إلى ما هو أعلى منها مرتبة.

ومن ذلك في التصريف: التكملة للفارسي وشرحها للجرجاني، والمنصف لابن جني، والتصريف الملوكي له، ثم الممتع لابن عصفور، والشافية لابن الحاجب وشرحها للرضي، ثم اقتصر الناس على القصيدة اللامية لابن مالك مع ما اشتملت عليه خلاصته الألفية من مباحث التصريف.

ومن ذلك في اللغة: كتاب العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد، وتهذيب اللغة للأزهري، والصحاح للجوهري. ومن أحسن وأثبت ما وضع المتأخرون من ذلك: القاموس المحيط للفيروزابادي. ومن ذلك الكتب الموضوعة للألفاظ على الأبواب والمعاني فإنها نافعة في التحصيل، كالفصيح لثعلب، وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر، ومن أنفعها: فقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي، ومن أوسعها وأوعبها: المخصص لابن سيده.

ومن ذلك في البلاغة: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، وأسرار البلاغة له، والبرهان لابن وهب، ثم مفتاح العلوم للسكاكي، فلما لخصه القزويني انصرف الناس عن الأصل ولزموا الفرع فشرحوه وحشوا عليه وصار عمدتهم في ذلك، ومن البلاغة العالية كتب الجاحظ ونخص منها كتاب البيان والتبيين إلا أنه كما يقول عنه أبو عامر ابن شهيد فيما نقله عنه ابن بسام في الذخيرة(233/1): "استمسك بفائدته، وضن بما عنده، غيرةً على العلم، وشحاً بثمرة الفهم، وعرف أن النفع كثير، والشاكر قليل، فلم يفد بما أوضح من أمر البيان فائدةً غير أهله، ومن كرع في حوضه، واستاف من نده. وأما أن يخرّج مبتدئاً، أو يعلم جاهلاً فلا ألبتة".

ومن ذلك في أصول العربية وفقهها وأسرارها: الخصائص لأبي الفتح ابن جني، وهو أعظمها وأدلها على مقاصد لسان العرب، والصاحبي لابن فارس، والمزهر للسيوطي لحسن ترتيبه وإن كان أكثره نقلا.

وضابط تقديم الكتاب من كتب علوم اللغة على غيره في الجملة أربعة أمور: **أولها**: وضعه في زمن الفصاحة والعربية حية على ألسنة العرب، فإن أصحاب هذه الكتب وضعوا تآليفهم وضع شاهد لا وضع سامع، وليس الخبر كالمعاينة. **والثاني**: سبقُه دَخَلَ العلومِ وخصوصا منها ما أضر بالعلم، فإنه أدل على مقاصد الواضعين الأولين، فإنّ اهتدى صاحبه إلى تلك المقاصد بحسن النظر لم يعبه بعد ذلك تأخر زمنه. **والثالث**: إحاطته بأصول العلم، وإن لم يلزم إحاطته بفروعه، فإن الأصل ينبه على الفرع، والفرع لا يجبر فوات الأصل. **والرابع**: ترتيبه وتبويبه، فإن الكتب وضعت لحفظ العلوم وتسهيل الوصول إلى مسائلها، ومن العلوم ما هو مبني على المقدمات والاستدلالات والنتائج، فما لم يحسن مؤلفه ترتيبه اضطرب على قارئه ودارسه فهمه ففاتت الفائدة منه.

9-هل لأمصار الإسلام علاقة بأنواع علوم اللغة؟ وما سبب ذلك؟

إن العراق هو موطن العربية الأول، وكان أهل البصرة أسبق الناس إلى وضع النحو، ثم تبعهم أهل الكوفة، ثم أقبل طلاب الأقطار على العراق ونقلوا منه تلك العلوم إلى بلدانهم، فشغل أهل كل بلد بما سبق إليهم، وعرفوا به، فعرف أهل البصرة بالعربية ومقاييس النحو والتصريف، وعرف أهل الكوفة برواية اللغة والشعر، وعرف أهل بغداد بالقياس والمسائل المخترعة والنظر في فلسفة اللغة وفقهها. وعرف أهل خراسان بمتن اللغة ووضع المعاجم، وعرف أهل الأندلس بالانكباب على النحو ودرس الكتب المتقدمة فعنوا بكتاب سيبويه وجمل الزجاجي وإيضاح الفارسي، وعرف أهل مصر والمغرب بالمتون المقررة.

ثم وجدت المدارس ومراكز التعليم فاستقرّ أهل كل مصر على ترتيب معروف في التعليم وأخذ الكتب، فالأمر باق على هذا إلى يومنا.

10-وقفة أخيرة: ما العلوم المستجدة في اللغة العربية؟ وما الموقف منها شرعا وعقلا؟

حين انفتح الشرق على الغرب واطلع على ما استحدث فيه من العلوم المستجدة، كان لذلك أثره في علوم المسلمين، فمن ذلك اطلاع علماء اللغة على طرائق الغربيين في البحث فيما سموه (علوم اللسان)، فدرسوه وترجموه وأدخلوه على علوم العربية القديمة ليعاضدها أحيانا وليضادّها أحيانا وليضارّها أحيانا أخرى، وهم في ذلك بين مستقلّ ومستكثر.

وليس في الشرع مانع من النظر في هذه العلوم والاستفادة منها فيما ظهر نفعه واستقرت قواعده، غير أن قاعدة المصلحة والمفسدة تقتضي نخله وتمحيصه وتخليصه ما أمكن عما يداخله أو يلابسه من الأصول الفاسدة أو الفلسفات الباطنة كما هو شأن أكثر العلوم المسماة بالإنسانية، وفي هذه العلوم صواب كثير مكّن منه تقدّم العلوم وتطوّر طرائق المشاهدة ومناهج الإحصاء ووسائل الضبط. وفيها كذلك خلل سببه فساد مقدمات منطقية، أو دَخَل من علوم غير مناسبة. وهذا باب واسع للنظر والاجتهاد. والله الموفق.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.